المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد الثاني والعشرون، يونيو ٢٠٢١ م

ملامح التجديد في فكر الإمام ولي الله الدهلوي

حسين محمد نعيم الحق *

Abstract

The study aims to look for the main aspects of reformation in the thought of Imam Wali Ullah Ahmad bin Abdul Rahim Al-Dehlawi. It also higlights his personal and objective characteristics which helped him play a prominent reformist role in the twelfth century AH. The researcher relies on several scientific methods, including the inductive and analytical method, and reaches to the conclusion that Imam Wali Ullah's reforming project is an inclusive project, which included Islamic Creed, Morality, Fiqh and other aspects of Muslim life. His great efforts enabled him to eliminate suspicions from the mind of Muslims and reassure them about their religion and Sharia. As a result, they can stand on a solid ground of faith and righteous acts. Therefore, they may reclaim the leadership of the humanity to rehabilitate the earth in the light of Islamic Sharia.

Keywords: Reformation, aspects of Reformation, Imam Wali Ullah Al-Dehlawi, purposes of Sharia, reclaiming the Muslim leadership.

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فإن الله تعالى جعل شريعة الإسلام آخر الشرائع السماويّة على وجه البسيطة، وختم بمحمّد صلى الله عليه وسلم سلسلة الرسائل الإلهية إلى الإنسانيّة، فكانت هذه الشريعة خالدة إلى قيام الساعة، وباقية إلى يوم القيامة، غير أن اختلاف الليل والنهار، وتجدّد الأيام والأعوام قد يؤدي إلى سقوطِ بعض ما في الدين من الدين، ودخولِ بعض ما ليس من الدين في الدين، واختلاطِ

* مساعد باحث بمركز ابن خلدون للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة في جامعة قطر، وطالب دكتوراه في الفقه وأصوله بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بنفس الجامعة.
hhoque@qu.edu.qa

بعض الأحكام الإلهية بالأهواء الإنسانيّة، وتلبّس بعض الأوضاع البشرية بالشريعة الربانية، فكان لا بد من جهود عظيمة وأعمال جسيمة للقيام بعملية التخلية والتحلية في أمور الدين وقضايا الشرع المبين، أي تخلية الدين عمَّا علِق به من الأمور الدخيلة عليه، وتحليته بما خرجَ من أموره من خلال إعادته إليه، وهذه الجهود هي المسماة بـ التجديد في الفكر الإسلامي، وأصحابها هم المجدِّدون.

وتاريخ الإسلام مليء بهؤلاء المجدِّدين الذين قاموا بهذه المهام العظيمة منذ وفاة صاحب الرسالة المحمدية –على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية– إلى هذا العهد، فقاموا بتصفية الدين عما علِق به من الأهواء والبدع، ونشروا بين الناس الدين الحنيف الذي بُعث به رسولنا الكريم، ومن هؤلاء المجدّدين: الإمام ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، الذي قام بدورٍ بارزٍ في تاريخ التجديد الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري.

وإحياءً لدوره البارز في هذا العصر الذي صِرنا فيه بحاجة ماسة إلى التجديد، وتعريفًا بجهوده التجديدية العظيمة قمتُ بدراسة هذا العلَم الكبير، من حيث الصفات الشخصية والموضوعية التي رشَّحتْه للقيام بأعماله التجديدية، وجوانب التجديد في فكره الإصلاحي العظيم، حسبما سمحتْ به هذه العجالة النافعة؛ لتكون حياته وأعماله منارة للهدى في ظلام الليل الحالك الذي نعيشه، لنطَّلع على هذه الجوانب التي قد تُسهم في تبديد هذا الظلام الدامس، وتنير لنا قصد السبيل، والله تعالى هو الموفِّق والمعين.

أسباب اختيار الموضوع

١. إبراز هذه الشخصية الإسلامي الفذ الذي أثّر في التاريخ الإسلامي عامة، وفي تاريخ التجديد خاصة.
٢. الاطلاع على أهم الأعمال التجديدية في فكره.
٣. الاستفادة من أعماله التجديدية وأدواره الإصلاحية في إصلاح بعض الجوانب الإسلامية المعاصرة.

إشكالية البحث

تبرز إشكالية البحث في السؤال المركزي الآتي: ما هي جوانب التجديد في فكر الإمام ولي الله الدهلوي؟

أسئلة البحث

يتفرع عن السؤال المركزي عدة أسئلة فرعية، يحاول الباحث الإجابة عنها من خلال هذا البحث، وهي:

١. ما الصفات الشخصية للإمام الدهلوي التي ساعدتْه في القيام بالأعمال التجديدية؟
٢. ما الصفات الموضوعية للإمام الدهلوي التي أهّلته لأداء الدور التجديدي في القرن الثاني عشر الهجري؟
٣. ما أهم الجوانب التي جدّد فيها الإمام الدهلوي؟

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، وهي:

١. التعرف على شخصية الإمام الدهلوي من خلال حياته العلمية والعملية.
٢. التعرف على الصفات الشخصية للإمام الدهلوي التي أثّرت في حياته التجديدية.
٣. التعرف على الصفات الموضوعية في حياة الإمام الدهلوي التي ساعدته في أعماله التجديدية.
٤. الاطلاع على أهم الجوانب التجديدية للإمام ولي الله الدهلوي.

الدراسات السابقة

إن الناظر في الكتابات الإسلامية المعاصرة يلاحظ أن الإمام الدهلوي لم يجد الاهتمام الذي يستحقه من خلال أعماله التجديدية الكبيرة وأدواره الإصلاحية المؤثرة في الحياة الإسلامية المعاصرة، غير أن ذلك لا يعني أنه لم يلق اهتمامًا البتة، بل هناك أبحاثٌ ودراساتٌ وكتبٌ عنه وعن أعماله، ولكن جلّها كانت تنصب على حياته عمومًا وخدماته خصوصًا، ولم يُفرِد أصحابُها جوانب التجديد في فكر الإمام بالبحث والدراسة، حسب ما اطلعتُ عليه من المصادر العلمية.

ويمكن الإشارة إلى بعض الكتابات التي تحدَّثتْ عن الإمام الدهلوي بوجه عام، مع التطرق إلى بعض جوانب التجديد في فكره بإيجاز، وذلك فيما يلي:

- الجزء الرابع من كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، حيث خصّ الشيخ هذا الجزء لدراسة حياة الإمام الدهلوي، وأعماله العلمية والعملية، ويقع الكتاب في قرابة ٣٥٠ صفحة، وهو أطول عمل علمي عن حياة الإمام الدهلوي فيما اطلعتُ عليه من المصادر.

- العدد الخاص من مجلة الفرقان الصادرة تحت رئاسة تحرير الشيخ محمد منظور النعماني، والذي صدر في ١٣٥٩هـ من الهند، باللغة الأردية، حيث كتب فيه أعلامُ الفكر الإسلامي المعاصر الهنود ومفكروه وكُتّابه، من أمثال السياسي البارع عبيد الله السندي، والعالم الكبير سليمان الندوي، والكاتب النحرير عبد الماجد الدريابادي، والمفكر الشهير أبي الأعلى المودودي، والأديب الأستاذ مسعود عالم الندوي، وغيرهم.

وهو عددٌ حافل بالكشف عن جوانب خفية من حياة الإمام الدهلوي وأعماله ومؤلفاته وغيرها.

- والترجمة الخاصة للإمام الدهلوي في كتاب «الإعلام بمن في الهند من الأعلام» لمؤرخ الهند الكبير الشيخ عبد الحي الحسني الندوي، حيث طوَّل النفَس في ذكر حياة الإمام الدهلوي، وأعماله، وخدماته، ومؤلفاته، وتُعدّ هذه الترجمة منطلق كثير ممن جاؤوا بعده للكتابة عن الإمام الدهلوي رحمه الله تعالى.

وهناك كتب وأبحاث ودراسات أخرى يرِد ذكرُها في ثنايا البحث بإذن الله تعالى.

منهجيّة البحث

اعتمدت في كتابة هذا البحث على جملة من المناهج العلمية، حسب الحاجة إليها، وهي:

١. المنهج الاستقرائي؛ وذلك في تتبُّع الكتابات المتعلقة عن الإمام الدهلوي في المصادر التي اهتمت به.
٢. المنهج الوصفي؛ وذلك لعرض نتائج المنهج الاستقرائي وسردها في تسلسل منطقي يُبرز شخصية هذا الإمام وملامح التجديد في فكره الإصلاحي العظيم.
٣. المنهج التحليلي؛ وذلك في تحليل بعض الأحداث والأقوال والقضايا المتعلقة بحياة الإمام الدهلوي، والتي قد تحتاج إلى ذلك.

هيكل البحث

قسِّم البحث إلى مقدمةٍ؛ ذُكر فيها القضايا الشكلية المتعلقة بالبحث العلمي، ومبحثين؛ قسِّم كلٌّ واحد منهما إلى ثلاثة مطالب، وخاتمةٍ؛ ذُكر فيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

المبحث الأول: الدهلوي؛ حياته وصفاته الشخصية والموضوعية

إن الحديث عن الفكر التجديدي لأي مجدّد لا بد وأن يسبقه حديثٌ –ولو بإيجاز– عن جوانب من حياته الشخصية، وخصائصه العلمية، وصفاته الموضوعية؛ ليدرك القارئ المقومات الأساسية والمعالم البارزة في حياته، التي أسهمت في تكوين شخصيته العلمية، وساعدتْه في القيام بأعماله التجديدية، وهذا ما أودّ القيام به من خلال هذا المبحث، الذي يشتمل على ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: السيرة المختصرة للإمام ولي الله الدهلوي

هو الإمام المجتهد والفقيه المقاصدي شيخ الإسلام قطب الدين ولي الله أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الله العمري الدهلوي، أحد نوابغ الدهر في العلوم والمعارف. وُلد عام ١١١٤هـ بدهلي، وأخذ العلوم الإسلامية واللغوية عن والده العلامة عبد الرحيم الدهلوي، كما استفاد من المحدث الكبير محمد أفضل السيالكوتي، وانتهى من الدراسة المنتظمة في الخامس عشر من عمره، وقد برع في علم التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والمنطق، والفلسفة، وعلم الكلام، وعلوم العربية، والسيرة، والتاريخ. ثم جلس على كرسي التدريس في هذه السن المبكرة

بعد إجازة والده له بذلك، وخلَف أباه فيه، واستمر في ذلك لمدة ١٢عامًا (الحسني ١٩٩٩، ٨٥٦/٧).

ثم سافر إلى أرض الحرمين الشريفين، وحجّ واعتمر، وجاورهما لمدة عامين كاملين؛ قضاهما في أخذ الحديث النبوي الشريف من كبار محدثي ذلك العصر، من أمثال المحدث الشهير أبي طاهر محمد إبراهيم الكردي المدني، والمحدث الكبير وفد الله المالكي المكي، والعلامة تاج الدين القلعي المكي وغيرهم، وأخذ الإجازة عنهم، لا سيما العلامة الكردي. وقد أعجب بنبوغه شيوخُه، حتى قال عنه أبو طاهر الكردي: "إنه يُسنِد عني اللفظ، وكنت أصحّح منه المعنى" (الحسني ١٩٩٩، ٥٨٥/٦). وبعد عامين حافلين بالعلم والطلب والعبادة والجوار قفل راجعًا إلى أرض الوطن، واشتغل بنشر الأحاديث النبوية الشريفة رواية ودراية، وفقهًا ومقاصدَ.

بارك الله تعالى في علمه ومؤلَّفاته، فألّف كتبًا طارتْ بها الركبان، وطبقتْ شهرتها الآفاق، منها: فتح الرحمن في ترجمة القرآن، وحجة الله البالغة، وإزالة الخلفاء عن خلافة الخلفاء، والإنصاف في بيان الراجح من الخلاف، وعقد الجيد في أدلة الاجتهاد والتقيد، والفوز الكبير في أصول التفسير، والمسوّى شرح الموطأ (باللغة العربية)، والمصفى في شرح الموطأ (باللغة الفارسية)، والتفهيمات الإلهية، واللمحات، والهمعات، والإرشاد إلى مهمات الإسناد، والبدور البازغة، وديوان شعر باللغة العربية وغيرها من الكتب السائرة في الآفاق.

ومن مزايا الإمام الدهلوي أنه لم يتركْ –في الجملة– جانبًا من جوانب الدين إلا واشتغل به، حيث كان مفسرًا بارعًا، ومحدثًا بصيرًا، وفقيهًا عميقًا، وأصوليًا دقيقًا، ومقاصديًا عجيبًا، وسياسيًا محنكًا، وداعيًا حنونًا، ومجاهدًا شجعان، وقد تركَ في كل هذه المجالات آثارًا بارزة ملموسة، فكان بذلك صورة ناطقة لقول الشاعر:

وليس على الله بمستنكر * * * أن يجمع العالَم في واحد

وبعد حياة حافلة بالجهاد والنضال والدعوة والإصلاح والاجتهاد والتجديد استجاب داعي ربه سبحانه وتعالى عام ١١٧٦هـ، ودُفن بدهلي. رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأنزل عليه شآبيب رضوانه، وجعل مقامه في العليِّين (الحسني ١٩٩٩، ٨٥٨/٧–٨٦٧ والقنوجي ١٩٨٥، ١٤٥–١٤٨ والقنوجي ٢٠٠٢، ٧٠٩ والألوسي ١٩٨١، ٥٩–٦٠ والندوي ٢٠٠٧).

المطلب الثاني: الصفات الشخصية للإمام الدهلوي

إن المتتبع لحياة الإمام ولي الله الدهلوي يلمس فيه بوضوح صفاتٍ وخصائصَ ومزايا أهَّلتْه لتبوئة منصب التجديد في القرن الثاني عشر الهجري، وفيما يلي إشارةٌ إلى أهمّها بإيجاز:

١. **التنوّع في موضوعات التلقّي**: حيث اطلع الإمام الدهلوي على كثير من العلوم الموجودة في عصره، واستوعبها، بل غاص فيها وأدرك أغوارها. فكان لهذا التنوع المعرفي والإثراء العلمي

أثرُه في حياته العملية، وفهمِه لنصوص الشريعة ومقاصدها، وإدراكِه لمشكلات عصره وتقديم حلولٍ مناسبة لها (الحسني ١٩٩٩، ٨٥٦/٧).

٢. **التنوع في مصادر التلقّي**: لم ينوِّع الإمام الدهلوي في موضوعات التلقي فقط، بل نوّع في مصادرها أيضًا، حيث أخذ العلوم عن علماء مختلفين في المناهج والمذاهب والمدارس والطرق، فلم يحصر نفسه في طريقة علمية معينة، ومدرسة معرفية محددة، كما كانت عادة العلماء في عصره، بل أخذ العلم عن علماء بلده الذين ينتمون غالبًا إلى مذهب فكري وفقهي معينين، ثم أخذ عن علماء آخرين ينتمون إلى مدارس علمية مختلفة عن مدرسة الهند في رحلته الحجازية، وتُعدُّ هذه الرحلة خطًا فاصلًا بين عهدين في حياة الإمام الدهلوي رحمه الله تعالى، كما رصَد ذلك سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي (الندوي ٢٠٠٧، ٤٨٠/٤)، حيث إن هذه الرحلة وسَّعت من معارفه الحديثية ومناهجه الفقهية ومداركه المقاصدية، فكان لهذا التنوع في مصادر التلقي أثره الإيجابي في تكوين عقليته العلمية والفكرية والتجديدية البعيدة عن التعصب البغيض والتحزب الشنيع.

٣. **المواهب الشخصية التي منحها الله تعالى إياه**: حيث إن الله تعالى قد أكرمه بذكاء خارق وفهم عميق وإدراك دقيق وغوص فيما وراء المعاني والمقاصد والغايات، وبراعة في إيصال المعاني العميقة إلى الخاصة والعامة بأسلوب رشيق سلس يُزيل اللبس والغموض وغواشي الاعتراض والشبهات، وقد أسهم كل ذلك في قبوله في الأوساط العلمية والاجتماعية والسياسية (القنوجي ٢٠٠٢، ٣١٨).

٤. **الملكة العلمية الراسخة في علوم الشريعة**: حيث منح الله ولي الله الدهلوي حظًا وافرًا في أصول الشريعة وفروعها، ومقاصدها وآلاتها، يقول النواب صديق حسن خان القنوجي مبيِّنًا هذه الحقيقة من خلال كتاب حجة الله البالغة: "كتاب حجة الله البالغة للشيخ الأجل أحمد ولي الله... الدهلوي... قلّ من صنّف فيه، أو خاض في تأسيس مبانيه، أو رتّب منه الأصول والفروع، أو أتى بما يسمن أو يغني من جوع، كيف ولا تتبين أسراره إلا لمن تمكَّن في العلوم الشرعية بأسرها، واستبد بالفنون الإلهية عن آخرها، ولا يصفو مشربه إلا لمن شرح الله صدره لعلم لدني، وملأ قلبه بسر وهبي" (القنوجي ٢٠٠٢، ٣١٨).

٥. **الاطلاع على مذاهب الفقهاء ومدارس الحكماء وطرائق العلماء**: حيث يظهر للمطلع على كتابات الإمام الدهلوي المتنوعة اطلاعُه الواسع وتبحره في معرفة مذاهب المجتهدين ومدارس الفلاسفة، وطرائق العلماء وآرائهم وأقوالهم وأدلتهم وحججهم ومآخذهم، وهذا الاطلاع الواسع على بحر العلوم والمعارف، والإدراك العميق لها قد أثّرا في اجتهاداته، كما أنّهما ولّدا التوازن والوسطية والاعتدال في آرائه (الحسني ١٩٩٩، ٨٥٦/٦).

٦. **الجمع بين النقل الصحيح والعقل السليم**: حيث اطلع الإمام الدهلوي على العلوم النقلية والعقلية، وجمع بين علوم الشريعة والولاية، وعلوم الظواهر والبواطن، وقد لخّص الشيخ شرف الدين محمد الحسيني (ت: ١١٦٣هـ) –وهو من تلاميذ الإمام– صفات الإمام الدهلوي العلمية في عبارة جامعة بوضوح وجلاء فقال: "لما دوِّنت علومُ الولاية وقواعدُها وقوانينُها، وتحقّقت النفوسُ الكاملةُ بأصولها وفروعها، وغلبتْ على الاستعدادات المختلفة نتائجُها وثمراتُها، ومرّ الدهور والأعصار، وتطاولت إليها أيدي الأفكار: اختلطتْ علومُ الولاية بعلوم النبوة –لشدّة غموضها– اختلاطًا صعُب التميّزُ بينها، بل اختلطتِ العلومُ كلُّها من النافعة والضارة لاختلاط الناس... فاقتضى التدبير الكلي والحكمة الأزلية أن تَظهَر حقيقةُ الحقائق بالقدر المشترك الجامع بين علوم النبوة والولاية، بل الجامع بين العلوم كلِّها مرة أخرى، في مظهرها الثالث؛ ليكون منصة لظهور حقائقها الجامعة المميِّزة بين العلوم ومراتبها؛ فهو يقنّن قوانين، ويدوِّن قواعد، يحصل بها الامتياز التام بين علوم النبوة والولاية، بل بين العلوم المعتدّة كلِّها... فينزل كل علم منزلتَه، ويبلِغ كل عبارة وإشارة مبلغه، وهو ... الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي..." (الحسني ١٩٩٩، ٨٥٩/٦).

المطلب الثالث: الصفات الموضوعية للإمام الدهلوي

سبقت الإشارة إلى الصفات الشخصية المتميزة التي اتصف بها الإمام الدهلوي، وهناك صفات موضوعية ساعدته في تكوين شخصيته وتبوئته منزلة التجديد في القرن الثاني عشر الهجري، وفيما يلي ذكر أهمها بإيجاز:

١. **الأسرة العلمية والعملية العريقة التي تربّى فيها الإمام الدهلوي**: حيث كان ينتمي إلى أسرة علمية وسياسية عريقة، فكان جده الأعلى الشيخ شمس الدين المفتي من العلماء الصالحين، والذي كان له دور بارز في نشرِ الإسلام في منطقة رهتك، وطمسِ معالم الكفر والشرك فيها، والجهاد ضد الكفار، كما أدى دور القاضي والمحتسب في هذه المنطقة، ثم استمر أولاده وأعقابه في أداء هذه المهام العظيمة والمسؤوليات الجسيمة مع خدمات العلم والدعوة إلى عهد والد الإمام الدهلوي (البرني ٢٠١٢، ٦٥).

كما أنه تربّى في كنف والده الذي كان يعدّ من كِبار علماء عصره، حيث كان ضمن اللجنة التي انتخبها الإمبراطور أورنك زيب لتأليف الفتاوى الهندية الشهيرة، كما كان مدير مدرسة علمية معروفة في عصره، وكان لهذه البيئة الأسرية العلمية أثره الكبير في حياة الإمام الدهلوي وتكوينه العلمي والعملي، يقول القنوجي واصفًا أسرته: "وكان بيته في الهند بيت علم الدين، وهم كانوا مشائخ الهند في العلوم النقلية، بل والعقلية... لم يُعهد مثل علمهم بالدين علم بيت واحد من بيوت المسلمين في قُطر من أقطار الهند... لا يختلف في ذلك مختلف من موافق، ولا من مخالف إلا من أعماه الله عن الإنصاف، ومسته العصبية والاعتساف..."(القنوجي ٢٠٠٢، ٧٠٩).

٢. **الأوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية في عصر الإمام الدهلوي**: حيث وُلد الإمام الدهلوي في آخر أيام الإمبراطور المغولي أورنك زيب (توفي في ١١١٨هـ) الذي يُعدّ آخر السلاطين المسلمين الأقوياء في الهند، وقد ورث عنه الإمبراطورية سلاطينُ ضِعاف، كانوا ألاعيب في أيدي الغزاة المستعمرين، من البرتغاليين والإنجليز وغيرهم، وبذلك كانت المملكة الإسلامية في الهند في بداية الانهيار السياسي؛ لذا كان عصر الإمام الدهلوي عصر الاضطرابات السياسية، والفوضى الاجتماعية، وما يتنج عن ذلك من التدهور الخلقي والانحطاط الديني، بسبب انتشار البدع والخرافات والمستحدثات وتقاليد الهندوسية والبوذية في ظل عدم وجود قيادة إسلامية قوية راسخة في الدين والإيمان، تحرس الشريعة الإسلامية وأحكامها، وبذلك تسربت المخالفات الشرعية إلى حياة المسلمين العامة، وانتشرت مظاهر الشرك الواضحة؛ من السجود للقبور، وتقديم القرابين والنذور للأموات، والذبح بأسماء المشايخ والأولياء، والطواف حول الأضرحة وغيرها، وكل ذلك قد اختلطت واندمجت في حياة المسلمين الدينية والاجتماعية، فكان لهذا الانحطاط الديني والسياسي والاجتماعي أثرٌ كبير في إثارة الحمية الدينية والغيرة الإيمانية في نفس الإمام الدهلوي؛ ليقوم بأعماله التجديدية وجهوده الإصلاحية.

٣. **وجود حمَلة أكفاء لميراثه التجديدي**: حيث منَّ الله تعالى على الإمام الدهلوي بأولاد نوابغ حملوا راية التجديد من بعده، وهم الإمام عبد العزيز الدهلوي، والشيخ رفيع الدين الدهلوي، والشيخ عبد القادر الدهلوي، والشيخ عبد الغني الدهلوي، ويُعدّ أولاده مأثرة خاصة للإمام الدهلوي، الذين قاموا بمهام العلم والدعوة والتزكية والجهاد من بعده، يقول العلامة القنوجي بهذا الصدد: "ثم جاء الله سبحانه وتعالى من بعدهم بالشيخ... ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ... وكذا بأولاده الأمجاد، وأولاد أولاده أولي الإرشاد... وقد نفع الله بهم وبعلومهم كثيرًا من عباده المؤمنين، ونفى بسعيهم المشكور من فتن الإشراك والبدع ومحدثات الأمور في الدين، ما ليس يخاف على أحد من العالمين" (القنوجي ١٩٨٥، ١٤٥-١٤٦).

المبحث الثاني: ملامح التجديد عند الإمام ولي الله الدهولي

سبقت الإشارة إلى جوانب من حياة الإمام الدهلوي بإيجاز، كما أشيرت إلى صفاته الشخصية، وخصائصه الموضوعية التي ساعدته على القيام بأعباء الإصلاح والتجديد، ونحاول هنا أن نذكر بعض ملامح التجديد في فكره من خلال هذا المبحث الذي يحتوي على ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: إصلاح العقيدة

قبل الدخول في تفاصيل الحديث عن تجديد الإمام الدهلوي العقدي لا بد من ملاحظة بعض الحقائق المهمة عن البيئة التي عاش فيها الإمام الدهلوي، وقام فيها بأعماله التجديدية؛ لأنها تساعدنا في فهم الدور الذي أدّاه هذا الإمام الكبير بهذا الصدد، وفيما يلي بيان ذلك:

أولًا– إن البيئة الهندية التي عاش فيها الإمام الدهلوي قد سيطرت عليها الديانة الهندوسية والفلسفة الهندية والحضارة الشركية منذ زمان، حيث كانت الوثنية ومظاهر الشرك وعبادة الأصنام ظاهرة راسخة ومتجذرة فيها؛ لغلبة الهندوس في تلك الديار، ولكونها مهد حضارة عريقة، يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: "إن الهند كانت تسيطر عليها من آلاف السنين الديانة والفلسفة والحضارة التي عجنت طينتها بالشرك والوثنية، وجريًا فيها مجرى الدم، والتي كانت أكبر ممثل في القرون الأخيرة للوثنية، والمحافِظة الأمينة على الجاهلية القديمة" (الندوي ٢٠٠٧، ٥٠٩/٤).

ثانيًا– إن الهند كانت بعيدة عن مهد الإسلام من حيث الجغرافيا، كما كانت بعيدة من مصادر الإسلام المباشرة لتأثير الحضارة الإيرانية وطغيانها في مجالات العلوم العقلية والفلسفة اليونانية. أما علوم الدين فكان جلّ اهتمام أهلها بعلوم الفقه وأصوله وعلم الكلام وغيرها، ولم يكن لهم اهتمام بمصادر الإسلام الأصلية، كالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، يقول العلامة عبد الحي الحسني بهذا الصدد: "اعلم أن الإسلام ورد الهند من جهة خراسان وما وراء النهر، فانعكست أشعة العلم على الهند من قبل تلك البلاد، وكانت صناعة أهلهما من قديم الزمان فنون الفلسفة وحكمة اليونان، وكان قصارى نظرهم في علم النحو والفقه والأصول وعلم الكلام عن طريق التقليد... فكان الفقه وأصوله معيار الفضيلة لأهل هذه الطبقة، كما أن المنطق والحكمة معيارها في هذا الزمن، فكان الفقه عمدة بضاعتهم ذلك اليوم، ولذلك كثرت فيها الفتاوى والروايات، ورفض عرض الفقه على الكتاب والسنة وتطبيق المجتهدات بالسنن المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم" (الحسني ١٩٨٣، ٩) ثم أورد الشيخ الحسني طبقات العلماء حسب التغيرات التي طرأت على العلم والعلماء إلى أربعة أقسام، وقال عن الطبقة الرابعة (وهي التي تقع في القرن الذي عاش فيه الإمام الدهلوي): "وفي هذه الطبقة منّ الله سبحانه على أهل الهند بالشيخ الأجل ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وأولاده، فإنهم شمروا عن ساقٍ الجد والاجتهاد لنشر علم الحديث الشريف، ونفع بعلومهم خلقًا لا يحصون بحدٍ وعدٍ، ولله الحمد"(الحسني ١٩٨٣، ١٧).

ثالثًا– الثأثير السلبي للتصوف غير المنضبط على حياة المسلمين، الذي ساعد على نشر معتقداتٍ تخالف قطعيات الشريعة الإسلامية، يقول الإمام الدهلوي مقارنًا بين مشركي قريش والصوفية المبتدعة في عصره: "وإن كنتَ غير مهتدٍ في تصوير حال المشركين وعقائدهم وأعمالهم فانظر إلى حال المحترفين من أهل عصرنا، لا سيما الذين يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام، ما هي تصوراتهم عن الولاية؟ ... وكيف تطرق إليهم التشبيه والتحريف؟ ونرى طبق الحديث الصحيح: «لتتّبعُنّ سنن من كان قبلكم» أنه ما من بلية من البلايا إلا وطائفة من أهل عصرنا يرتكبونها، ويعتقدون مثلها، عافانا الله سبحانه وتعالى من ذلك"(الدهلوي ٢٠٠٨، ٢٥–٢٦).

في مثل هذه البيئة التي تغلغل فيها الشرك الأكبر ومظاهر الكفر الصراح قام الإمام ولي اللّه الدهلوي بدعوته إلى العقيدة الصحيحة الواضحة التي جاء بها محمد صلى اللّه عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى، وفيما يلي بيان موجز عما قام به من التجديد والإصلاح في هذا الجانب الأساسي من الدين:

١. بيان موقع التوحيد في سلّم الأولويات الإسلامية، وأنه أصل أنواع الخير الذي جاء به محمد صلى اللّه عليه وسلم، حيث قال: "أصل أصول البر، وعمدة أنواعه هو التوحيد، وذلك لأنه يتوقف عليه الإخبات لرب العالمين، الذي هو أعظم الأخلاق الكاسبة للسعادة... وبه يحصل للإنسان التوجه التام تلقاء الغيب، ويستعد نفسه للّحوق بالوجه المقدس، وقد نبه النبي صلى اللّه عليه وسلم على عِظَم أمره، وكونه من أنواع البر بمنزلة القلب، إذا صلح صلح الجميع، وإذا فسد فسد الجميع، حيث أطلق القول فيمن مات لا يشرك باللّه شيئًا أنه دخل الجنة.. وحكى عن ربه تبارك وتعالى «من لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة»" (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٢٠٦).

٢. بيان مراتب التوحيد وتحديد الموقف الإنساني في كل مرتبة، وأن مشركي قريش واليهود والنصارى لم يختلفوا في المرتبتين الأوليين، وإنما كان اختلافهم في المرتبتين الثالثة والرابعة، وهما اللذان تناولهما القرآن الكريم وردَّ فيهما على الكفار وشُبَههم، قال الإمام الدهلوي مبينًا ذلك: "واعلم أن التوحيد أربع مراتب؛ إحداها: حصر وجوب الوجود فيه تعالى، فلا يكون غيره واجبًا. والثانية: حصر خلق العرش والسموات والأرض وسائر الجواهر فيه تعالى، وهاتان المرتبتان لم تبحث الكتبُ الإلهية عنهما، ولم يخالف فيهما مشركو العرب، ولا اليهود، ولا النصارى، بل القرآن العظيم نص على أنهما من المقدمات المسلمة عندهم. والثالثة: حصر تدبير السموات والأرض وما بينهما فيه تعالى. والرابعة: أنه لا يستحق غيره العبادة، وهما متشابكتان متلازمتان لربط طبيعي بينهما. وقد اختلف فيهما طوائف من الناس؛ معظمهم ثلاث فرق: النجّامون –الناظرون في النجوم المستنتجون منها أحوال الكون– ... والمشركون... والنصارى... وهذه الفرق الثلاث لهم دعاوى عريضة، وخرافات كثيرة لا تخفى على المتتبع، وعن هاتين المرتبتين بحث القرآن العظيم، وردّ على الكافرين وشبهتهم ردًا مشبعًا" (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٢٠٦–٢٠٩).

٣. بيان حقيقة الشرك ومظاهره؛ من السجود لمن يُعتقد فيهم الصلاح، والذبح لهم، والحلف بهم، والاستعانة بهم في الأمور العويصة، ونحت صورهم، والتوجه إلى أرواحهم عن طريقها، يقول رحمه اللّه تعالى مبينًا ذلك: "حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان في بعض المعظَّمين من الناس أن الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفًا بصفة من صفات الكمال، مما لم يُعهد في جنس الإنسان، بل يختص بالواجب جلَّ مجدُه، لا يوجد في غيره إلا أن يخلع

هو خلعة الألوهية على غيره، أو يغني غيره في ذاته ويبقى بذاته أو نحو ذلك، مما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات..." (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٢١٦).

٤. بيان صفات الله تعالى التي تليق به سبحانه وتعالى، ولا يستحقها أحدٌ من خلقه جلّ جلاله، وما يجب الاعتقاد به حول هذه الصفات، والرد على الفرق التي تطاولت في هذا الباب كالمعتزلة، وكذا الإيمان بالقضاء والقدر، والأثر الإيجابي المرتب عليه، و"أن القدر لا يزاحم سببية الأسباب لمسبباتها" (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٢٣٥).

٥. وجوب إفراد الله تعالى والموجب لذلك، حيث إن من أعظم البر "أن يعتقد الإنسان بمجامع قلبه، بحيث لا يحتمل نقيض هذا الاعتقاد عنده، أن العبادة حق الله تعالى على عباده، وأنهم مطالبون بالعبادة من الله تعالى بمنزلة سائر ما يطلبه ذوو الحقوق من حقوقهم... لأن من لم يعتقد ذلك اعتقادًا جازمًا، واحتمل عنده أن يكون سدى مهملًا، لا يُطالب بالعبادة، ولا يُؤاخذ بها من جهة رب مريد مختار، كان دهريًا لا تقع عبادته، وإن باشرها بجوارحه بموقع من قلبه، ولا تفتح بابًا بينه وبين ربه، وكانت عادة كسائر عاداته" (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٢٣٧-٢٣٨).

٦. إصلاح التصوف الذي كان سببًا في دخول بعض مظاهر الشرك، بل الشرك الصريح، في حياة كثير من المسلمين، حيث بيَّن الإمام الدهلوي حقيقة التصوف، وموقف الشريعة من الطرق الصوفية المعروفة في زمانه، وشروط الشيخ المؤهَّل لتزكية المسلمين (الدهلوي، القول الجميل، ٢٢-٣١). كما حذَّر من أدعياء التصوف الجهَلة وخرافاتهم وخزعبلاتهم التي أحدثوها، والمفاسد التي تترتب على ذلك في حياة المسلمين، مع الإشادة بجهود شيوخ التصوف المخلصين العارفين وأهمية الاستفادة منهم (الدهلوي ١٣٥٥هـ، ١/٢٠٥-٢٠٦)، واهتمامه البالغ بضرورة تزكية النفس وإصلاح الباطن لكل المسلمين، والطرق الشرعية الصحيحة لذلك، وبيان موقع التزكية في الشريعة الإسلامية، وأنها إحدى الركائز الأربعة للبعثة المحمدية، على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية (الدهلوي ٢٠١٢، ١٩٣-١٩٤)؛ حتى يتمكن الناس من التمييز بين صحيح التصوف وباطله، والتفريق بين أعمال الباطن الضرورية وأعماله غير الضرورية، والفصل بين شيوخ التزكية المؤهَّلين وشيوخها الأدعِيَاء. وهكذا نجد الإمام الدهلوي لم يكن ممن يرفضون الخير كله لوجود بعض الشر فيه، ولا ممن يتمسّكون بالشر كله لوجود بعض الخير فيه، بل كان يغربل الخير من الشر، ويميِّز الخبيب من الطيّب؛ فيأخذ بالخير والطيب ويدعو إليهما، ويرفض الشر والخبيث ويحذِّر منهما.

والخلاصة أنه يمكن القول، من خلال تتبع سيرة الإمام الدهلوي، بأن إصلاح عقيدة المسلمين كان همه الأكبر الذي عاش لأجله؛ لذا نجده حاضرًا حتى في وصيته التي كتبها قبل وفاته، حيث جاء فيها: "وصية هذا الفقير الأُولى أن يتمسك المسلم في العقائد والعمل بالكتاب والسنة،

ويعضّ عليهما بالنواجذ، ويعمل بهما دائمًا، **ويختار في العقائد منهج المتقدمين من أهل السنة**، ويعرض في باب الصفات والآيات المتشابهات التي لم يخض السلف في تفصيلها والبحث فيها عنه، ولا الالتفات إلى تشكيكات العقلانيين المتكايسين"(الندوي ٢٠٠٧، ٥٣٢/٤).

المطلب الثاني: دعوة العودة إلى المصادر الأصلية للشريعة الإسلامية

ويتفرع هذا الجانب من جوانب تجديد الإمام الدهلوي على الجانب الأول، وهو إصلاح العقيدة، حيث إن إصلاح العقيدة بصورة صحيحة لا يمكن أن تكون بدون العودة إلى الكتاب والسنة مباشرة، ومن هنا اهتمّ الإمام بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ونشر مقاصدهما وغاياتهما بين الناس.

ولما كان الاعتقاد السائد بين الناس في عصره أن القرآن الكريم والسنة النبوية لا يفهمهما إلا خاصة الخاصة، وأن فهمهما يحتاج إلى علوم عميقة، وأن نشر تعاليمهما بين العامة فتحٌ لباب شر عظيم!! تجشم الإمام الدهلوي عناء الرد على هذا النمط من التفكير وأصحابه بأسلوب منطقي أخّاذ متهكّم إلى حد ما، حيث قال في كتابه تحفة الموحّدين: "يُطلِق بعض الناس القول بأن القرآن الكريم والحديث الشريف لا يمكن أن يفهمهما إلا من درس العلوم الكثيرة، وقرأ الكتب التي لا تحصى، ويكون علامة عصره، ويرد الله عليهم فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أميًا، وأصحابه أميين، ولكن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لما تلا على أصحابه آيات الكتاب الحكيم تزكّتْ بها قلوبُهم، وصفتْ بها نفوسُهم، فلو كان الأمي لا يمكنه أن يفهم القرآن والسنة، ولا يملك صلاحيةً لفهمه وإدراكه فكيف أمكن للصحابة أن يتزّكوا بها، ويتطهّروا من الشرور والمفاسد، ويا أسفي على قوم يدّعون فهم صدرا –كتاب يعدّ الذروة في الحكمة– وعلم القاموس –القاموس المحيط– ولكنهم يتظاهرون بأنهم مجرد جهلة فيما يتعلق بفهم القرآن والحديث!

ويقول بعضهم: نحن المتأخرون زمنًا فأنّى لنا بركات عهد النبي صلى الله عليه وسلم وسلامة قلوب عهد الصحابة رضي الله عنهم حتى ندرك مغزى القرآن والحديث! ويردّ الله تعالى على ذلك: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] أي أن المتأخرين، سواء كانوا مثقفين أو أميين، إذا كانوا مسلمين، وعزموا على سلوك طريق الصحابة الميامين، وأصغوا بآذانهم إلى الكتاب والسنة فإنهما كفيلان لهم أيضًا بتزكية قلوبهم وتصفية نفوسهم، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢] فكيف يتسنى لدارسي الكفاية –كتاب في النحو لابن الحاجب– وعلماء الشافية –كتاب في الصرف لابن الحاجب نفسه– أن يتظاهروا

بعجزهم عن فهم معنى هذا الكتاب الذي كان يفهمه العرب البدو، ويدركون حقيقته ومغزاه" (الندوي ٢٠٠٧، ٥١٤/٤-٥١٥).

ولتحقيق هذا الهدف -العودة إلى القرآن والحديث- قام الإمام بالأعمال العظيمة الآتية:

١. اهتمَّ بترجمة معاني القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بطريقة سهلة ميسرة توضّح للقارئ مقاصدهما وغاياتهما وتعاليمهما، سواء أكان من أهل العلم أم من غيرهم؛ لأن بيئته الأعجمية كانت غريبة على لغة الوحي المباشرة، وأساليبه وطرقه في بيان الهداية الربانية، فكان لا بد لمن يريد ربط الناس بمصادر الإسلام المباشرة أن يترجمها إلى لغة أهله؛ ليمكنهم العودة إليها.

غير أن الإمام واجه عقبات بهذا الصدد ممن رأوا أنفسهم وكلاء حصريين على الشريعة الإلهية، فرأوا في عمل الترجمة هذا تحريفًا لرسالة الإسلام! لكن الإمام لم يبالِ بها؛ لأن الذي قيّده الله تعالى للقيام بأعباء التجديد العظيمة لم يكن ليهتمّ بمثل هذه الترهات؛ لذا أقدم عليه إقدام الفارس المغوار، وبيّن هدفه من أعماله هذه، حيث قال في المقدمة التي كتبها لترجمته للقرآن الكريم: "إن هذا العصر الذي نعيشه، وهذه البلاد التي نسكنها تقتضي فيها مصلحة المسلمين ونصيحتهم أن يُنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السلسة؛ حتى يفهمها العامة والخاصة... ويدرك الصغار والكبار جميعًا معاني القرآن الكريم ومطالبه، وقد ألقِيَ الدافع إلى هذا العمل في روعي، واضطررتُ إليه اضطرارًا" (الندوي ٢٠٠٧، ٥١٧/٤).

لم يكن هذا العمل الذي قام به الإمام الدهلوي في مجال ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية أمرًا ترجماتيًا كسائر الترجمات في الوقت الحاضر، بل كان عملًا جريئًا بكل ما تعنيه كلمة "الجرأة" من معنى، حيث أزال به الإمام صخرة عاتية أمام ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات هذه البلاد، وهذا ما نتلمسه من خلال تتابع الترجمات الكثيرة التي جاءت بعد ذلك إلى لغات أخرى في شبه القارة الهندية، يقول الكاتب الكبير عبد الماجد الدريابادي- صاحب التفسير الماجدي المعروف باللغة الأردية والإنجليزية- : "إن ما نراه اليوم من المحاولات الجارية في الهند -شبه القارة الهندية- لفهم معاني القرآن الكريم، وهذه الترجمات الموجودة باللغة الأردية والإنجلزية وغيرهما التي تعدّ بالعشرات الصادرة في الماضي والحاضر، والتي ستصدر في المستقبل لا شكّ أن جزءًا من أجرها يُكتب في ميزان حسنات الإمام الدهلوي؛ لأن هذه السُرُج كلها أنيرت من ذلك السراج" (الدريابادي ١٣٥٩هـ، ١٣).

٢. وضَعَ الإمام الدهلوي قواعد جامعة وضوابط دقيقة تنشئ ملكة الفهم والتدبر في القرآن الكريم بين المسلمين، حيث قال في مقدمة كتابه (الفوز الكبير): "لما فتح الله تعالى عليّ بابًا من فهم كتابه، خطر ببالي أن أجمع وأقيّد بعض النكات النافعة التي تنفع الأصحاب في رسالة

مختصرة، والمرجوّ من لطف الله الذي لا انتهاء له أن يفتح لطلبة العلم بمجرد فهم هذه القواعد شارعًا –طريقًا– في فهم معاني كتاب الله، بحيث لو صرفوا عمرهم في مطالعة التفاسير والقراءة على المفسرين... لم تتحصل لهم هذه الفائدة بهذا الضبط والربط" (الدهلوي ٢٠٠٨، ١٥–١٦).

٣. بيَّن الإمام الدهلوي مقاصد القرآن الكريم وأهدافه وغاياته والقصد من نزوله: ، يقول الإمام –وهو في معرض حديثه عن أسباب النزول ومذاهب العلماء والمفسرين في ذلك– : "وقد ربط عامة المفسرين كل آية من آيات الجدل والأحكام بقصة، ويظنون أن تلك القصة هي سبب نزولها، والحق أن القصد الأصلي من نزول القرآن هو تهذيب النفوس البشرية، ودمغ العقائد الباطلة، ونفي الأعمال الفاسدة. فوجود العقائد الباطلة في خواطر المكلفين سبب لنزول آيات الجدل، ووجود الأعمال الفاسدة وشيوع المظالم فيما بينهم سبب لنزول أيات الأحكام، وعدم تيقظهم وتنبههم بغير ذكر آلاء الله وأيام الله ووقائع الموت وما بعده سبب لنزول آيات التذكير. وأما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التي تجشّم المفسرون بيانها فليس لها مدخل في ذلك، يُعتد به، إلا في بعض الآيات الكريمة" (الدهلوي ٢٠٠٨، ١٨–١٩).

وهكذا حاول الإمام الدهلوي ربط العامة والخاصة في تلك الديار النائية عن موطن الوحي الأصلي بمصادره المباشرة، من خلاله جهوده المضنية في نقل معانيها، وبيان مقاصدها، واستخراج أحكامها، وذكر فضائلها. وهو جانبٌ جِدّ مهم في جوانب التجديد الدهلوية الكثيرة.

المطلب الثالث: الكشف عن مقاصد الشريعة

إن الناظر في جهود الإمام الدهلوي التجديدية يلمس بوضوح وجلاء دوره التجديدي في بيان أسرار الشريعة الغراء ومقاصدها العظيمة، حيث إنه أبرزها من خلاله كتابه العظيم (حجة الله البالغة) الذي "يعدّ من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلمية الكبرى التي عُرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف في صورة جامعة متناسقة مدعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة والإحسان بترتيب وترابط ونظام، وفي تناسق واتزان، بحيث يخيَّل إليك كأنها لآلئ العقد المنظوم، أو حلقات سلسلة مترابطة... ولم يُؤلف كتاب في حدود علم المؤلف –وهو سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي– وفي اللغات التي يعرفها (وكان يُتقِن عدة لغات) في تأييد ديانة من الديانات وتفسيرها اللبق الحكيم، وفلسفتها الجامعة المتناسقة كهذا الكتاب في منزلته ومكانته" (الندوي ٢٠٠٧، ٥٦٩/٤–٥٧٠).

إن العمل التجديدي الذي قام به الإمام الدهلوي من خلال هذا الكتاب العظيم كثيرٌ وكبيرٌ، ويمكن الإشارة إلى بعض منها بشيء من إيجاز:

أولًا– تقديم تفسير عقلاني شافٍ لأسئلة الفلسفات المطروحة منذ قديم الزمان، حول الأحكام الشرعية وعقلانيتها ومعقوليتها، وبيان مجيئها لتحقيق المصالح الإنسانية على وجه الحقيقة بأدلة نقلية وعقلية، بحيث إن القارئ المستوعب لأفكار المؤلف وكتابه لا يستطيع إنكار تلك الحقائق والمقاصد التي استخرجها من ثنايا الأحكام الشرعية وبطون الأدلة الإسلامية بأسلوبه المنطقي اللبق الذي يذعن له العقل السليم (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٥٦–٥٧).

ثانيًا– الدفاع عن الأحاديث النبوية الشريفة، وردّ الشبهات التي أثيرت حولها، والتأويلات البعيدة الموجهة حول بعض معانيها، وذلك عن طريق بيان أسرارها العميقة ومقاصدها الدقيقة؛ لأن علم الحديث عمدة العلوم اليقينية وأساس الفنون الدينية في نظر الإمام الدهلوي؛ لكونه بيانًا للتنزيل الحكيم الذي نزل به الروح الأمين من قبل رب العالمين، يقول الإمام الدهلوي بهذا الصدد: "إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث، الذي يُذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين، من قول أو فعل أو تقرير، فهي مصابيح الدجى..."(الدهلوي ٢٠١٢، ١/٣٥).

ثالثًا– التوفيق بين العقل الصريح والنقل الصحيح، والرد على من يحاول ليّ عنق بعض الأحاديث النبوية بحجة أنها تخالف المنطق والعقل، فقال ردًا على هذه الفرية: إن "جماعة من الفقهاء زعموا أنه يجوز ردّ حديث يخالف القياس من كل وجه، فتطرق الخلل إلى كثير من الأحاديث الصحيحة، كحديث المصراة، وحديث القلتين، فلم يجد أهل الحديث سبيلًا في إلزامهم الحجة إلا أن يبينوا أنها توافق المصالح المعتبرة في الشرع" (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٥٧).

رابعًا– محاولة رفع الخلاف بين الفقهاء أو تخفيفه من خلال التحاكم إلى مقاصد الشريعة؛ لأنها توضّح السبيل الأقوم في خضم معركة الآراء، وتنير طريق الحق، حيث يقول الإمام الدهلوي بهذا الصدد: "اختلف الفقهاء في كثير من الفروع الفقهية بناءً على اختلافهم في العلل المخرجة المناسبة، وتحقيق ما هو الحق هنالك لا يتم إلا بكلام مستقل في المصالح" (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٥٦).

خامسًا– إصلاح الجمود الفقهي والتعصب المذهبي، من خلال بيان دور الفقه في حياة المسلم، وأنه يُعدُّ شريانَ الحياة بالنسبة إلى الأمة، الذي يجب أن يتجدَّد في كل حين وفي كل لحظة،

بحسب مقتضى الزمان والمكان والظرف والبيئة، ولا يصحّ أن يتجمَّد على رأي معين، أو فكر معين، أو قول معين، إذا تغيَّر الواقع، وتخلَّفت العلة، وتبدَّلت الصورة. كما أن الإمام الدهلوي حاول التخفيف من وطأة التعصب المذهبي لدى بعض المقلدين الذين كانوا يرون في المذاهب الفقهية كفاية للأمة، وعدم حاجتها إلى الاجتهاد والاستنباط من جديد رغم تغيُّر كثير من الظروف والأحوال والبيئات، وذلك من خلال بيان حال الناس، بمن فيهم العلماء، تجاه المذاهب الفقهية في القرون الأربعة الأولى، وأن الناس كانوا يسألون العلماء في الوقائع المستجدة، دون التزام صارم وتقيُّد كلّي بمذهب فقهي معيَّن، ولم يكونوا يرون أن الخروج من المذهب الفقهي في رأي أو قول يساوي الخروج من الدين، حيث قال في التفهيمات الإلهية: "وترى العامة، سيما اليوم، في كل قُطر يتقيّدون بمذهب من مذاهب المتقدمين، يرون خروج الإنسان من مذهب من قلَّده، ولو في مسألة، كالخروج من الملة، كأنه نبي بُعث إليه، وافترضت طاعته عليه. وكان أوائل الأمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد" (الدهلوي ١٣٥٥هـ، ١٥١/١)، كما كان الإمام الدهلوي يشدِّد في الرد على من يتمسَّك بقول المذهب الفقهي، ولو كان مخالفًا لصريح الدليل الشرعي، وأنه يُخشى عليه من النفاق (الدهلوي ١٣٥٥هـ، ١٣٤/٢). غير أن الإمام الدهلوي يرى، مع ذلك، جواز تقليد المجتهد أو العالم، بل وجوبه، لمن لم تتهيَّأ له وسائل الاجتهاد بشروطه المعروفة (الدهلوي ٢٠١٢، ٥١٠/١ وعقد الجيد، ٤)، كما أنه لم يكن يُنكر المذاهب الفقهية المتبعة جملة وتفصيلًا، كما يفعل ذلك بعض الناس في هذه الأيام، بل كان يرى في الأخذ بها مصلحة عظيمة للأمة، وفي الإعراض عنها كليًا مفسدة جسيمة (الدهلوي، عقد الجيد، ١٣). وبذلك اتّسم منهج الإمام الدهلوي بالاعتدال والتوسط بين المغالين في الأخذ بالمذاهب الفقهية بعجرها وبجرها والمجافين لها.

سادسًا– إصلاح السياسة الإسلامية التي كادت تمّحي معالمها تحت تأثير المصالح الذاتية، والعادات الهندية الشركية، والأعراف الاجتماعية الوثنيّة، من خلال بيان أهميّة السياسة الإسلامية، ومفهومها، وغاياتها ، وخصائص القائمين بها، وضرورة تنفيذ الأحكام الشرعية فيها (الدهلوي ٢٠١٣، ٨٦/١–١٠٠)، والمفاسد التي تتسرب إلى السياسة، إن لم يتصف القائمون عليها باليقظة والحذَر والعلم بمقاصد الإسلام في السياسة والاجتماع، وكيفية التغلب على التحديات التي تواجهها الدولة الإسلامية في الداخل والخارج، وبيان سنة الله تعالى في صعود الدول وزوالها (الدهلوي ٢٠١٢، ١٦١ فما بعدها). ولم يكتفِ الإمام الدهلوي بالتنظير

العلمي البعيد عن واقع الحياة السياسية، بل دخل بنفسه في هذه المعمعة، وحاول إصلاح ما فسد من سياسة المسلمين في ضوء تعاليم الكتاب والسنة، وحلَّ التناحرات البينيّة التي كانت تعاني منها الممالك الإسلامية المتناحرة في عصره، وإزالةَ الفوضة والاضطراب والتشرزم والتمزّق، من خلال طرح الحلول الواقعية لمشاكلها البينيّة، وتحذيرِ قادتها من المخاطر الداخلية والخارجية التي تؤذِن بزوال دولة الإسلام في هذه الأرض، في حال لم يأخذوا بهذه الأمور بجديّة، وذكرِ الطرق والآليات التي تحفظ للأمة وحدتها ودولتها وهيبتها، وبيانِ الوسائل التي تردع أعداءها المتربصين بها، بل المهاجمين عليها أحيانًا، من المرهتة وغيرها، وإصلاح الفساد الأخلاقي والاجتماعي والمالي الذي يقضي على نظام الدولة الإسلامية من داخله؛ فكان يراسل أباطرة المغول، ووزراءها، وأهل الحل والعقد فيها، وسلاطين الممالك الإسلامية المجاورِة لها، وكُبَرَاءها، وقادتها، ويلفت أنظارهم إلى واجباتهم الدينية ومسؤولياتهم الحضارية للحفاظ على كيان الدولة الإسلامية ومصالح المسلمين في هذه الأرض، ويحفِّزهم على مواجهة جميع التحديات بالوعي والعلم والإعداد المنظم، ويحذِّرهم من مغبّة الخلافات الداخلية، والاستهانة بالأخطار الخارجية، والغوص في المترفات والملهيات (الندوي ٢٠٠٧، ٦٣٦/٤ فما بعدها)، وكان يستخدم في ذلك حميته الدينية وغيرته الشخصية ومواهبه العلمية وحنكته السياسية وهمته العالية وذكاءه البالغ ونظره الساقب، حتى يحافظ على الدولة الإسلامية الهابطة بقوة إلى هُوّة الانهيار.

سابعًا– بثُّ الطمأنية ونشر الاستقرار النفسي والقلبي بين المسلمين من خلال بيان الأسرار الكامنة والمقاصد الباطنة في أحكام الدين الحنيف؛ ليقفوا على أرض صلبة لا تتزعزع أمام أمواج الفتن العاتية ورواسي الشبهات المحيرة، ومن هنا كان علم أسرار الدين (مقاصد الشريعة) أعلى العلوم الحديثية والشرعية منزلة وأعظمها قدرًا وأرفعها منارًا؛ لذا كان أحق العلوم لصرف الإنسان أنفس أوقاته فيه في نظر الإمام الدهلوي، حيث يقول مبينًا ذلك: "إن أدقّ الفنون الحديثية بأسرها عندي، وأعمقها محتدًا، وأرفعها منارًا، وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى وأعلاها منزلة، وأعظمها مقدارًا هو: علم أسرار الدين الباحث عن حِكَم الأحكام ولميّاتها، وأسرار خواص الأعمال ونكاتها.

فهو –والله– أحق العلوم بأن يصرِف فيه من أطاقه نفائسَ الأوقات، ويتخذه عدة لمعاده، بعدما فُرِض عليه من الطاعات؛ إذ: [١] به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع، وتكون

نسبته بتلك الأخبار كنسبة صاحب العروض بدواوين الأشعار، أو صاحب المنطق ببراهين الحكماء، أو صاحب النحو بكلام العرب العرباء، أو صاحب الأصول بتفاريع الفقهاء.

[٢] وبه يأمن من أن يكون كحاطب ليل، أو كغائص سيل، أو يخبط خبط عشواء، أو يركب متن عمياء، كمثل رجل سمع الطبيب يأمر بأكل التفاح فقاس الحنظلة عليه؛ لمشاكلة الأشباح.

[٣] وبه يصير مؤمنًا، على بينة من ربه، بمنزلة رجل أخبره صادق أن السم قاتل، فصدّقه فيما أخبره وبين، ثم عرف بالقرائن أن حرارته ويبوسته مفرطتان، وأنهما تباينان مزاج الإنسان، فازداد يقينًا إلى يقين" (الدهلوي ٢٠١٢، ١/٣٧-٣٨).

وبهذه الطريقة العقلية الرائعة كان الإمام الدهلوي يعرض مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرارها على الناس ليقودهم إلى حضن أحكامها؛ ليوظّفوها في حياتهم، ويطبّقوها في مجتمعاتهم، وينشروها بين الناس؛ لتعود الأمة الإسلامية إلى دينها من جديد، وتستفيدَ من ثرواته الهائلة الغائبة عن سوق البشر، فتتمكّن من قيادة العالَم الإنساني من جديد، وترجع إليها هيبتها الضائعة بين الأمم، وتستظلّ الأرض المحرَقة من جرّاء الفلسفات المادية بظلال الإسلام الوارفة، ويستدفئ بدفيء الشريعة الإسلامية المنعِش المعذَّبون والمنعَّمون من أمم الدنيا على حد سواء؛ ليخرُج العالَم كله من ظلمات الفلسفات الوضعية المتناقضة إلى نور الوحي الهادي إلى الحق والحقيقة، ومن جور الأديان البشرية إلى عدل الإسلام المنزَّل من رب العالمين، ومن ضيق دنيا الماديات وحدها إلى سعة الروح والمادة معًا(الندوي ٢٠١٢، ١٠٨)؛ ليكون الناس عبيدًا لله تعالى بالاختيار بعد أن كانوا عبيدًا له سبحانه بالاضطرار (الشاطبي ٢٠٠٩، ٣١٨).

الخاتمة

أهم النتائج

في ختام هذا البحث أودّ أن ألخّص أهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال مسيرتي معه، وهي كما يلي:

أولًا- منح الله تعالى الإمام ولي الله الدهلوي خصائص بارزة ومميزات نادرة ساعدتْه على القيام بدور الإصلاح والتجديد في القرن الثاني عشر الهجري، منها: التنوع في موضوعات التلقي، والتنوع في مصادره، والمواهب الشخصية، والملكة العلمية الراسخة في علوم الشريعة الإسلامية بمختلف فروعها، والاطلاع الواسع على مذاهب الفقهاء، ومدارس الحكماء، وطرائق العلماء، والجمع بين النقل الصحيح والعقل السليم.

ثانيًا- تميزتْ حياة الإمام ولي الله الدهلوي بخصائص موضوعية أسهمت في بروزه كمجدّد للدين والشرع ومصلح للأمة والملة، منها: الأسرة العلمية العريقة التي تربى في كنفها، والوضع الديني والسياسي والاجتماعي المزري الذي عاش فيه، ووجود حملة مخلصين لدعوته وناشرين لأعماله، ومكمّلين لجهوده من أولاده وتلاميذه.

ثالثًا– إن قائمة الجهود التجديدية التي قام بها الإمام الدهلوي طويلة وعريضة، ولا يمكن حصرها في مثل هذه الورقة العلمية الصغيرة؛ لذا أحاول ذكر أهمها فيما يلي:

أ– إصلاح العقيدة الإسلامية عن طريق بيان موقع التوحيد في سلم الأولويات الإسلامية، ومضار الشرك ومظاهره، وبيان صفات الله تعالى التي لا يستحقها أحدٌ سِواه سبحانه وتعالى، والمذهب الصحيح تجاهها، ووجوب عبادة الله تعالى وحده، وموجب هذا الوجوب، وإصلاح التصوف الذي دخل من خلاله بعض مظاهر الشرك، بل الشرك الصريح، في حياة المسلمين.

ب– دعوة الناس إلى العودة الصحيحة إلى مصادر الإسلام المباشرة، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وبيان طرقها، وتسهيل السير عليها عن طريق ترجمته لمعاني القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وبيان مقاصدها وغاياتها.

ت– إن العمل التجديدي الأبرز الذي قام به الإمام الدهلوي هو: بيان أسرار الشريعة الإسلامية الغراء ومقاصدها الكلية والجزئية بطريقة منطقية سهلة، تُزيل عن قلوب الناس ونفوسهم غواشي الشبهات حول أحكام الشريعة الإسلامية والأحاديث النبوية الشريفة، بحيث يقف المسلم المدرِك لهذه المقاصد على أرض صلبة من الطمأنينة النفسية والاستقرار القلبي، فلا يتزعزع ولا يتحير في خضم معركة الأراء والشبهات والشهوات.

وأخيرًا أودّ أن أسجِّل التوصية التي أراها مناسبة بهذا الصدد، وذلك بناءً على تجربتي مع هذا الموضوع الشيِّق المهم، وهي: أن هناك جوانب تجديدية مهمة من فكر الإمام الدهلوي، وهي بحاجة إلى بيانها، وكشفها، ونفث الغبار عنها وعرضها أمام الناس بصورة منهجية سهلة، تجعلهم على قناعة بحيوية الإسلام وعقلانية أحكامه، وتجدُّد فيوضه، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وسبقِه جميع المدارس والفلسفات في تحقيق مصالح الخلق في الدراين بأفضل طريقة وأيسر سبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلَّم على سيِّدنا محمد، وعلى آله وصحابته وأمته إلى يوم الدين.

قائمة المصادر والمراجع

١. الألوسي، أبو البركات خير الدين نعمان بن محمود. ١٩٨١. *جلاء العينين في محاكمة الأحمدين*. مطبعة المدني.

٢. البرني، ضياء الدين. ٢٠١٢. *تاريخ فيروزشاهي*، ترجمة بنغالية: غلام صمداني قريشي. دكا: دِبّو فروكاش.

٣. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري. ١٩٩٠. *المستدرك على الصحيحين*. بيروت: دار الكتب العلمية.

٤. الحسني، عبد الحي بن فخر الدين. ١٩٩٩. *نزهة الخواطر وبهجة المسامع والمناظر المطبوع باسم: الإعلام بمن في الهند من الأعلام*. بيروت، دار ابن حزم.

٥. الحسني، عبد الحي. ١٩٨٣. *الثقافة الإسلامية في الهند*. دمشق: مجمع اللغة العربية.

٦. الدهلوي، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم. ٢٠١٣. *إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء*، تعريب: جاويد أحمد الندوي. دمشق: دار القلم.

٧. الدهلوي، ولي الله. ١٤٠٤هـ. *الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف*. بيروت: دار النفائس.

٨. الدهلوي، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم. ١٣٥٥هـ. *التفهيمات الإلهية*. دابهيل: المجلس العلمي.

٩. الدهلوي، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم. ٢٠١٢. *حجة الله البالغة*. دمشق: دار ابن كثير.

١٠. الدهلوي، ولي الله. ٢٠٠٨. *الفوز الكبير في أصول التفسير*. دمشق: دار الغوثاني للدراسات القرآنية.

١١. الدهلوي، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم. *القول الجميل في بيان سواء السبيل*. لاهور: مكتبة رحمانية.

١٢. السيالكوتي، محمد بشير. ١٩٩٩. *الشاه ولي الله الدهلوي: حياته ودعوته*. بيروت: دار ابن حزم.

١٣. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي. ٢٠٠٩. *الموافقات في أصول الشريعة*. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٤. القنوجي، صديق حسن خان. ٢٠٠٢. *أبجد العلوم*. بيروت: دار ابن حزم.

١٥. القنوجي، صديق حسن خان. ١٩٨٥. *الحطة في أخبار الكتب الستة*. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٦. الندوي، أبو الحسن علي. ٢٠٠٧. *رجال الفكر والدعوة في الإسلام*، المجلد الرابع الخاص بالإمام الدهلوي من هذا الكتاب. دمشق: دار ابن كثير.

١٧. الندوي، أبو الحسن علي. ٢٠١٢. *ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين*. دمشق: دار القلم.

١٨. الندوي، أبو الحسن. ١٤٢٠هـ. *المسلمون في الهند*. دمشق، دار ابن كثير.

١٩. النعماني، محمد منظور. ١٣٥٩هـ. "ممارسة الفهم القرآني في شبه القارة الهندية والإمام ولي الله الدهلوي." *مجلة الفرقان* (العدد الخاص بالإمام الدهلوي باللغة الأردية): ١٣.